التَوْحِيد والحِكْمَة مِيرَاثٌ عَرِيق

Monotheism & Wisdom; an immemorial Legacy

مُقَدِّمَة:

وَرَدَ في القرآن الكريم أن رسالة كل نبي في أمته على طول التاريخ هي الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والوثنيات: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: ٣٦، وعلى إثرهم أُلهِم الحكمة من ليسوا بأنبياء؛ كالحكيم المصري لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ لقمان: ١٢، واقتضت الحكمة العمل بالتوحيد؛ الميراث العريق للأنبياء: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣، قال الراغب الأصبهاني في تفسيره: "ومعنى الحكمة.. معرفة حقائق الأشياء..، وهي أعم من النبوة، فكل نبي حكيم؛ وليس كل حكيم نبيا..ً، (لأن) العلوم النبوية.. لا وصول إليها إلا بالوحي"، فالنبوة المصحوبة بكتاب مُقَدَّمَة على الاجتهاد؛ والجامع هو التوحيد، فناسب تمييز (الْكِتَاب) بوروده في مواضع مُقتَرِنًا بلفظ (الْحِكْمَة)؛ ومُقَدَّمًا عليه، وناسب الاكتفاء بالحكمة في مقام التكريم لِتَعُم كل نداء بالتوحيد على مر التاريخ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة: ٢٦٩، ويذخر التاريخ بحكماء ورثوا حكمة الأنبياء ونبذوا الشرك والوثنيات؛ لتشهد سلسلة متصلة الحلقات بالأصل في الدين وأن توحيد الخالق أساس الحكمة.

(١) تَوحِيد الخَالِق أَسَاس الحِكْمَة:

عاش الحكيم المصري والمعلم الأكبر تُحوت Thoth منذ ٥٠٠٠ سنة على أقل تقدير، وقيل أنه بحكمته قد بلغ مقام الرَّبَّانِيَّة؛ وألهمه الله العلوم ومبادئ الدين، فبُنِيَت له المعابد لتوريث حكمته، وفي المأثور أنه قد كشف للمصريين علوم الفلك والعمارة والهندسة والطب، وعُزِيَ إليه اختراع الكتابة الملكية الهيروغليفية Hieroglyph؛ كأشكال تصويرية رمزية، وتصوره نقوش المعابد والمقابر كطائر يُحَلِّق عاليًا ليطالع حكمة الرب المبثوثة في الأرجاء ويهبط بالمعرفة؛ رمزًا يُجَسَّد اعتباره رسولاً لله ذو معرفة روحية وحيًا أو إلهامًا؛ فيستحق أن يكون في السماء مقر السمو الإلهي والأرواح الطاهرة والنور، وليست حكمة الحكماء إذن سوى استبصار لحكمة الرب المُتَجَلِّيَة في خَلقِه؛ والذي يَهبَه للإنسان الجدير بفهم حكمته، فاستجاب نوابغ لنداء الوجود بالتوحيد وسَجَّلُوا الأدعية والابتهالات؛ يَشْدُوا في ركب المُبْصِرين، وتَفْنَى اليَّد الكاتبة وتبقى الحكمة خالدة؛ وإن خَفِيَت عن العَوَام، أَسرَى التقليد وجمود الإلف والاعتِيَاد، فَاقِدِي الاستِبصَار والعَجَب والانبِهَار، وقد خُلِقَ الإنسان إذن لِيتأمل الوجود حوله ويَعْتَبِر.

وافتُتِنَ الإغريق بحكمة المصريين؛ وتمثَّلُوا تُحوت المُرْسَل بالحكمة بمعبودهم هرمس Hermes؛ المُحَلِّق عاليا بهيئة الكوكب عطارد كاشفًا الآفاق، والحكيم يطير مع أفكاره لاستنباط حكمة الأشياء، والطائر يُحلِّق عاليًا فتنكشف له التخوم، واعتبروا الحكيم كذلك كطائر البوم؛ الذي اعتقدوا أنه يدير رأسه لكل الجهات، فيُمكنه رؤية المُخْتَفِي خلف رأسه، وهذا هو حال الإنسان الحكيم؛ الذي لا يطلق رأيًا إلا بعد أن ينظر في الأمر بِرُمَّتِه من كل جوانبه، فيرى ما لا يراه سواه؛ وكذلك كان تُحوت، والمُرْسَل بالحكمة هو أكمل عقل لمعرفة الله تعالى؛ وأكمل مُعَلِّم ومُرْشِد إليه، وتمييزًا عن معبودهم سمُّوه هرمس مثلث العظمة Hermes Trismegistus؛ أي العظيم ثلاثا، تكريمًا لمعرفته السَّامِيَة، وثلاثي القوة؛ لأنه لم يكتف في رؤية العالم حوله بعينين فحسب كالعوام، وإنما أضاف إليهما عينًا ثَالِثَةً هي عين البَصِيرَة؛ أي التَّفَكُّر في الخلق واستبصار المَغزَى الكَامِن بالاستدلال على جلال الخالق، وثلاثي التعليم؛ لأنه كان يصف الله تعالى بثلاث صفات أساسية جامعة؛ أنه: أزلي (وسواه عارض عابر؛ فهو إذن الخالق)، حي (قيوم قادر؛ يُدَبِّر شئون خلقه)، حكيم (في كل تدبيره؛ بعلم محيط بكل الجوانب)، أي فريد الصفات واحد أَحَدْ؛ لا مَثِيلَ لَهُ، مُنَزَّه تعالى عن صفات المخلوقين، وهو مَالِك النَّوَاصِي وفَاطِر المُهَج ومُوَجِّه المَقَاصِد ومُلهِم الاختراع والإبداع والفنون والصناعات؛ وواهب حكمة التوحيد، فالتوحيد إذن منذ القدم لا يعني مجرد الواحدية، وإنما الأحدية؛ بتَفَرُّد الإله الخالق في صفاته العَلِيَّة، وتوقيره وتعظيمه وخصه وحده تعالى بالعبودية؛ والخشية من يوم الحساب الأخير.

وأسند الإغريق إلى الحكيم المصري القديم الذي سموه هرمس؛ كل التعاليم والأعمال، والأرجح أنها ثمرة معارف ومهارات أجيال من الكهنة المُعَلِّمِين؛ ولشهرته نسبوها جميعًا إليه، ومتون هرمس تُسمَّى الهرمسيات Corpus Hermeticum؛ وقد كُتِبَت باللغة المصرية القديمة التي اندثرت في نهاية القرن الرابع بعد الميلاد؛ فآخر مثال معروف لاستخدام الكتابة الهيروغليفية كان لنقش يرجع إلى عام ٣٩٤ بعد الميلاد؛ اختفت بعده كل معالمها، ولم تُعرف مُجَدَّدًا إلا بعد اكتشاف حجر رشيد عام ١٧٩٩، وجَمَعَ المُتون كهنة الإسكندرية زمن مجد الإغريق؛ وصاغوها باليونانية بأسلوب عصرهم، وتُرجمت مؤخرًا إلى الإنجليزية ومنها إلى العربية، وهي دليل تاريخي كافي على أن التَّوحِيد أصل الديانة ونهج الحكماء منذ القدم، ومن مواعظ هرمس التي تُدَلِّل على عراقة الإيمان بوحدانية الله وقدرته: "تأمل لِلَحظَة كيف تَأَتَّى لك أن تُخلق في الرحم، فَكِّر في صُنع القادر، وابحث عن الصَّانع الذي أبدع جمال صور (الخلق)، فمن ذا الذي أدار حدقة عينيك، ومن ذا الذي فتح أنفك وفمك وأذنيك، ومن ذا الذي مد أربطتك وربطها ببعضها، ومن ذا الذي أنشأ عظامك وكسى لحمك بالجلد، ومن ذا الذي سوى أصابعك وبسط قدميك، ومن ذا الذي شَكَّلَ قلبك وَجَوَّفَ رئتيك، ومن ذا الذي جعل جمالك ظاهرًا وأخفي قبح أمعاءَك، كم من الصَّنائع صُنِعَت وكم من الأعمال أُبْدِعَت لتجسيد المخلوق الإنساني، فلا التماثيل ولا التصاوير تَحْدُث من تلقاء ذاتها دون عمل ناحت أو راسم؛ أفلا يكون لهذا العمل المُتَعَالِي من خَالِق!".

هكذا يُحَاول هرمس لفت انتباهنا لِنَتَيَقَّظ ونتأمل أنفسنا ونرتجف خَشيةً بِحُسن صُنع المُبدِع القَدِير وسَابِغ نِعَمِه وكَرِيم صَنِيعه، ويُرَدِّد هرمس الدعوة لتأمل الكون المُرَوِّع الضَّخَامَة بِدَهشَةٍ وانبِهَار وتَوَاضُع أمام عملٍ بديع رائع؛ مُنَظَّم ومُرَتَّب بِحِكمَةٍ واقتدار، لا تُفَسِّر حفظ نظامه صدفة عمياء؛ وإنما إرادة سامية حكيمة بقصد، فكل الأجرام الفلكية تُشرق وتَأفُل بانتظام تام؛ ولا حضور دائم لها لترعى شأنًا أو تؤثر، فهي إذن مُقَدَّرَة المسير مُوَجَّهَة، تنطق بمُقتدر حكيم وعليم خط لكل منها مسارًا وحدد المدة لتقطعه، والنَّاظِر في الوجود المُتَرَابِط الأحداث في تكامل وتناسق وتناغم وانسجام؛ وتلاؤم وتآلف، والمُحكم الترتيب المُنَظَّم بقوانين وَاحِدَة وشَامِلَة وصَارِمَة؛ إذا لم يلتفت إلى ضرورة وجود مشيئة مُقَدِّرَة ومُدَبِّرَة وقَاهِرَة وغير مُتَحَيِّزَة بمكان؛ لا يُدركهَا بَصَر، خلف كل هذا الإبداع والعناية والرعاية التي ينطق بها كل وجود أو حدث؛ فقد فَاتَهُ المَغزَى الكَامِن وغَفَلَ عن الافتقار للصَّانِع، وصَارَ أسيرًا كالعَوَام للمَظَاهر المَادِّيَة؛ مُقَصِّرًا في تَوظِيف مَلَكَة التَّفَكُّر والإستبصَار التي ميزت الإنسَان عن الحيوان، وبهذا يُحاول هرمس أن يُعيدنا لمشاعر الطفولة الغَضَّة والإحساس بالرَّهبَة والخُشُوع؛ أمام عجائب الوُجود النَّاطقة بجلاء بجلال المُبدِع القَدِير.

وبتعدد اللغات والصفات تتعدد أسماء الخالق الواحد؛ وهو يُدعَى بالهيروغليفية آتوم Atum، ومعناه الكامل أو التام؛ أي مُطلق القدرة، وخلاصة حكمة هرمس هي: "آتوم.. هو أعظم من أن يُطلق عليه اسم آتوم (أي تعجز اللغة عن التعبير عن عظمته بالكلمات)، هو الخفي المُتَجَلِّي (بصفاته الحسنى) في كل شيء، تُعرف كينونته بالفكر وحده؛ وتُدركه عيوننا في (شواهد) الآفاق..، هو الجوهر الكامن في كل شيء..، آتوم كامل (الصفات)..؛ ويُحيط (علمه) بكل شيء، هو الواحد الذي ليس كمثله شيء"، ومن النبوءات الهرمسية: "الحكمة الخالصة هي الجهد الروحي (الفكري) في التأمل المستمر للوصول إلي معرفة الإله الواحد آتوم، لكن سيأتي زمان لا يطلب فيه أحد بذل جهد في الحكمة بطهارة قلب ووعي..؛ آه يا مصر، لن يبقي من دينك شيء سوي لغو فارغ (شكليات بلا جوهر)..، لن يبقي شيء يُروي عن حكمتك إلا علي شواهد القبور القديمة، سيتعب الناس (بفقدها)..؛ ويكفون عن رؤية الكون كشيء جدير بالعَجَب المُقَدَّس، ولسوف تُصبح الروحانية (الحكمة) التي هي أعظم بركات الله مُهَدَّدَة بالفناء..، ولا.. يكون العَالَم جديرًا بالحب كمعجزة؛ من خلق آتوم.. ولا كشاهد عظيم علي فضله..، (معجزةً) تُذَكِّي في مشاهدها الإجلال والحمد..، ولا تُسمع ولا تُصَدَّق كلمات تبجيل وثناء (للإله)؛ تتجه إلى السماء"، وتَدَبُّر الوجود إذن هو أعلَى مَرَاتِب العِبَادَة؛ لأن المُتَأَمِّل يُوقِن بعظمة المُبْدِع ويَتَعَرَّف من جمال الصَّنْعَة على جَلَال الصَّانع، ويُكَرِّم القرآن الكريم مَن تَأَمَّل فَتيقظ ووَعَي بالمَغزَى الكَامِن؛ وخشع في عبادة الصانع، عبادةً بالفكر؛ لا بالجوارح فحسب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران: ١٩١.

وتَرِد في القرآن الكريم تعبيرات تتضمن الدلالة على فطرية الإيمان بالله الواحد الأزلي القدير، وأنه غريزة مغروسة في أعماق النفس؛ مجبول عليها كل إنسان، فلفظ "الكفر" يعني التغطية على مكنون؛ كتغطية الزُّرَّاع لبذور ينبغي أن تُثمر، ولفظ "الشرك" يعني اصطناع شريك مُفتَعل لا ينفي وجود الأصل، وتتحقق النَّجَاة والخَلاص إذن بمعرفة المُدَبِّر وراء المظاهر المُعَايَنَة؛ سعيًا وراء الحقيقة الكامنة خلف كل وجود أو حدث، لا اكتِفَاءً باكتشاف العلاقات والقوانين والتَّوَقُّف عن التَّأَمُّل والبحث أعمق من الأسباب المَادِّيَّة الظَّاهِرَة، ويدفع التَّأَمُّل عن الوجود إيجاده عبثًا بلا غرض، فكل حدث مُوَجَّه بإتقان Perfectly-Directed لا يَتَخَلَّف عن موعده ليحقق غرضًا لإرادة عليمة قاهرة؛، وكل كيان مُوسِر التفاصيل، مُخَطَّط مُسبَقًا Preplanned؛ مُصَمَّم بأحسن تَصمِيم Well-Designed، ليقوم بوظيفة مُقَدَّرَة في تكامل مع سواه؛ مثل الزوجين الذكر والأنثى يتكاملان تشريحيًّا ووظيفيًّا ونفسيًّا، والغرض هو الحفاظ على النوع، فالأكيد الذي لا لبس فيه؛ والذي شهدت به الحكمة قديمًا وكل مجالات العلوم حديثًا؛ وجود نظام Order، فأين إذن الفوضى Chaos؛ لِتَغفَل الأذهان عن مظاهر الجلال وشواهد الكمال!، فكل ذرة في الكون تنطق بجلال الله وكل تكوين، ويَرَى الحكيم رحمته وفضله في كل حدث يَمُر؛ ويُعاين قدرته تعالى في كل نَازِلَة.

(٢) صُرُوح عِملاقة تَنطِق بالتَوحِيد:

نسبوا لهرمس ثلاثي التعليم تشييد الهرم الأكبر؛ أي موافقًا لحكمته في معرفة الله، والعَارِف بأسلوب قدامى المصريين في التعبير بالرموز المُجَسِّدَة للدلالات المعنوية؛ لا يَستَبعِد أن يكون التصميم الثلاثي للأهرامات الثلاثة، وكذلك توائمها الصنوان الثلاثة، ليتجه كل جانب منها لإحدى الجهات الأربع بهيئة أضلاع ثلاثة؛ يجعلها تحفة معمارية قائمة على معرفة فلكية، ورمزًا لديانة التوحيد؛ يُصَوِّر هَندَسِيًّا الوصف الثلاثي لعظمة الإله الخالق ووحدانيته، فتعبير هرمس عن صفات الله تعالى الثلاثة يتفق مع جوانب الأهرامات ذات الأضلاع الثلاثة، وتَوَحُّد قممها في نقطة وحيدة شامخة تتجه نحو السماء يرمز لعليائه ووحدانيته، واتجاهها لأركان العالم يُشِير إلى شهادة كل الوجود بالصفات العَلِيَّة للخالق المعبود.

ويُدَعِّم هذا الافتراض أَنَّ المثلث عند الأمم القديمة، وأسلاف اليهود الفارين من مصر بكنوزها المعرفية وحكمتها؛ يَرمُز لربوبية وتَعَالِي الإله الخالق Deity؛ وكمال صفاته وعنايته التي تَتَجَلَّى فيما صنع(*)، وصدىً لمفاهيم الإسلاف؛ اتخذ الماسون حديثًا الهرم شعارًا عليه عين العناية الإلهية Providence (all-seeing) eye of God، والتي يُفترض أنها كانت رمزًا لتدبير الرَّب لشئون الخلق على الدوام؛ والذي لا يغفل ولا ينام ولا يَأفُل مَجدُه لحظة، وفي المنقول الهندوسي يرمز المثلثين المتقابلين المتداخلين (النجمة السداسية) إلى الإله الخالق العَلِي الصِّفَات؛ وولادة الخليقة والحياة على الأرض، مثلث يتجه رأسه نحو الأعلى ليمثل سمو الخالق ومجده؛ ومثلث آخر يتجه رأسه نحو الأسفل ليمثل تنامي الخليقة والحياة منذ بدء خلق العالم، ومثله الشعار السداسي لأسلاف اليهود (نجمة داود)؛ والمُجَسِّد هَندَسِيًّا لدلالة أول عبارة بالأسفار (التكوين؛ ١ ١): "في البَدء خلق الله السموات والأرض"، وتفصيلها هو (الرسالة إلى العبرانيين؛ ١٢ ١٠-١٢): "أَنْتَ يَارَبُّ فِي الْبَدْءِ أَسَّسْتَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتُ؛ هِيَ عَمَلُ يَدَيْكَ، هِيَ تَبِيدُ وَلكِنْ أَنْتَ تَبْقَى، وَكُلُّهَا كَثَوْبٍ تَبْلَى وَكَرِدَاءٍ تَطْوِيهَا فَتَتَغَيَّرُ، وَلكِنْ أَنْتَ أَنْتَ وَسِنُوكَ لَنْ تَفْنَى"، وشيد القُدَامَى أغلب صروحهم الدينية المُعَبِّرَة عن الخليقة ومجد الخالق مُراعين الجهات الأصلية؛ قياسًا على مشرق الشمس حيث تشرق الأرض يوميًّا بنور ربها، والاتجاهات الجغرافية الأصلية بالنسبة للمواجه الشرق؛ تجعل يمينه الجنوب ويساره الشمال، ولعل اسم اليمن مستمد من يمين المواجه لجهة الشرق، وشيد قدماء المصريين مدنهم غالبًا جهة مشارق الأرض بحذاء النيل، وجعلوا المقابر والمعابد الجنائزية مغاربها حيث تذوي الشمس، وأبو الهول المُمَثِّل للملك الحامي لربوع مصر بجسم أسد رمزًا للقوة يواجه الشرق، وكذلك الأهرام ومعظم الكنائس والمعابد، وكان المُرَبَّع عند القُدَامَى رَمزًا للعالم مُمَثَّلاً بجهاته، وليس مُستبعدًا إذن اعتبار الأهرام الثُلاثِيَّة الجوانب المُرَبَّعَة القاعدة؛ رمزًا لبدء الخليقة وأَزَلِيَّة الخَالِق ومَجدِه.

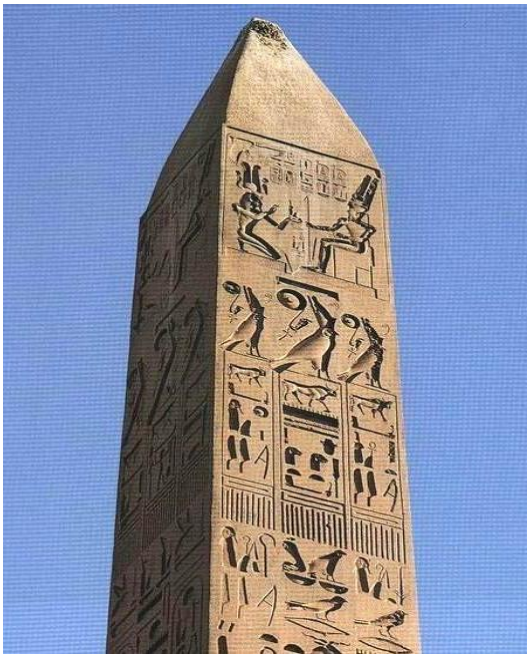

ولَعَلَّ تسابق ملوك مصر لتَمجِيد الإله العظيم؛ واهب نِيلَهَا وثَرَاءَهَا، بهياكل مثلَثة الجوانب؛ وفق حكمة كهنتها في بناء الأهرامات، ونحت المسلات؛ الممتد كُلٌ منها في السماء أمام المعابد كأصبع واحد مرفوع في صلاة لِيُعَبِّر رَمزِيًّا عن التوحيد، وذات القمم بهيئة أهرامات مثلثة الجوانب كذلك؛ يرجع إلى حكمة موروثة أعرق، تركت بصمات مبدأ التوحيد في صحراء شمال السودان بهيئة أهرامات مثلثة الجوانب كذلك؛ تربو أعدادها على ٢٤٠ هرمًا، أي أكثر من ضِعف عدد كل أهرام مصر (٩٧ هرمًا)؛ وإن كانت مُتَوَاضِعَة، فيقف أكثر من ٩٨ هرمًا على طول الشريط النيلي بالولاية الشمالية للسودان، وفي منطقة البجرواية يقف ١٤٠ هرما يعود تاريخها إلى العهد المَرَوِي (٩٠٠ ق. م - ٣٥م)، ويرى باحثون أن تاريخ الصروح الهرمية والمعابد؛ يمتد منذ بواكير الحضارة الإنسانية إلى حوالي ألفي عام قبل الميلاد، طبقا للكتابات الهيروغليفية المنقوشة على جدرانها، في مناطق كانت تُمَثِّل عُمق دُويلات النُّوبَة ومملكة كوش في الزمان القديم.

أطلال معابد وأضرحة في شمال السودان؛ ملحقة بأهرامات جوانبها مثلثة ذات دلالة رمزية لحفاظها على نفس الشكل.

(٣) مُعتقَدات تُؤَيِّد التَّوحِيد:

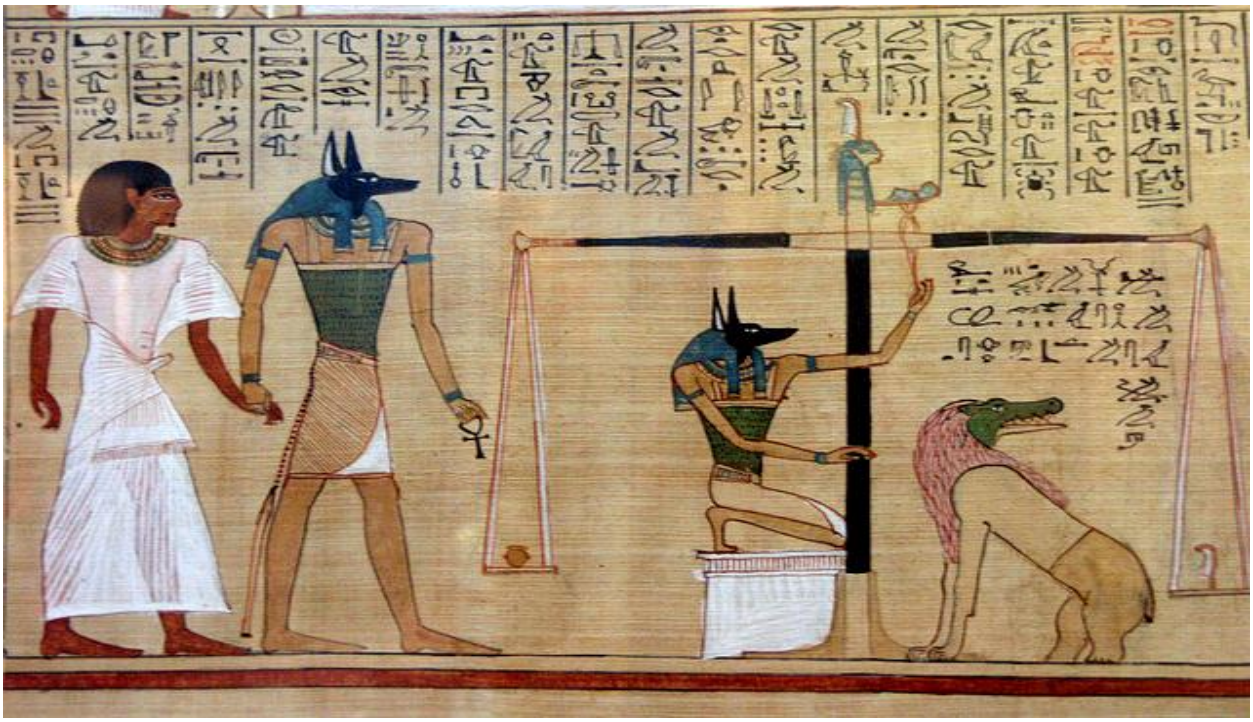

إلحاقًا بمبدأ التوحيد؛ آمنت مصر منذ القدم ببعث الأجساد للحساب، حيث تُنفَخ فيها الأرواح ويُجَر الإنسان إلى **ميزان العدل** الذي ينتظر إلى جانبه وحش ترهيبًا، ويوزن قلبه مقابل ريشة طائر لمعرفة كونه طاهرًا خفيفًا كريشة أم مثقلاً بالذنوب؛ فإن خف قلبه نجا وإلا فالهلاك الأبدي، وفي القرآن الكريم الكتاب الجامع لكل حق؛ تنويهًا لحكمة أمم بائدة وكشفًا لنقوش طوي معناها الزمان ورسوم غامضة، **تُوزن الأعمال الصالحة** في المقابل ترغيبًا بميزان العدل والقسط؛ لبيان دقة الحساب: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء: ٤٧، إنها إذن حكمة سَجَّلَهَا التاريخ ونَوَّهَ إليها القرآن الكريم؛ تردد على مسامع الفطين قائلةً: تيقظ؛ تأمل وتدبر، انتبه واعتبر، استعد للمصير: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ المؤمنون: ١٠٢و١٠٣.

والإيمان بالله الخالق العظيم؛ الواحد والوحيد (الأحد) وبعثه لِعِبَادُه يوم القيامة للحساب، اقتضى حفظ أجساد الموتى، فبرع كهنة مصر قديمًا في فن التحنيط Mummification، وكانت الأحشاء تُستخرج وتحفظ في أربعة جرار تسمى بالكانوبية نسبةً إلى مدينة كانوب؛ موضع أبو قير حاليًّا، ويُترك القلب باعتباره مُمَثِّلاً للضمير، واعتقدوا أن الروح عند الموت تُغَادِر الجسد بهيئة **طائر**؛ يَحمِل كل مَلاَمِح الرَّاحِل ويحفظ كل ذكرياته وأعماله، وعند الحساب يلاقيه الطائر الروحي بكل ما عَمِل؛ لا فكاك منه، ومن باب التمثيل المُتَضَمِّن العلم بمُعتَقَد الروح المُجَسَّدَة كطائر، والذي طوته السنون؛ يُنَوِّه القرآن الكريم مُعَبِّرًا عن عمل الإنسان في حياته **بطائر**، وعن امتناع الفكاك يوم القيامة من حساب الله تعالى له، كحال العبد الأسير المُقَيَّد بأساور الحديد في العنق؛ حيث لا فِكَاك: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء: ١٣و١٤.

والأرواح في مُعتقد القُدَامَى كَيَانَات شَفَّافَة غير مَادِّيَّة لا تُرى، ولكل جسم مَادِّي روحه المتصلة به؛ ولكل كلمة منطوقة كيانها الروحي الذي يَستَدعِي ما تُعَبِّر عنه، فيحضر الثعبان بتلفظ اسمه؛ ويفيض النيل بمناداته وتقديسه، ويستجيب الإله المزعوم المُجَسَّد بهيئة صنم مَنحُوت بالدعاء والقرابين، وهذا أساس الوثنيات وعبادة الطوطم Totem؛ وفي الأسفار (يوحنا ١٤ ٢٤): "الله روح"، فأوهم التعبير تكييف الذات العلية؛ لكن مضمونه أنه تعالى أسمى من أن تراه عين، وفُسِّرَت الظواهر الكونية المجهولة الكيفية بالرُّوح (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ؛ ١١ ٨): "أَعْطَاهُمُ اللهُ رُوحَ سُبَاتٍ"، وهكذا اختلطت دلالات لفظ الروح، فناسب أن يَتَلَطَّف القرآن الكريم في دفع التَصَوُّرَات الفلسفية الموروثة حول ماهية الروح وكيفية البعث وطبيعة الظواهر الكونية التي لم يدركها أحد بعد؛ مُلفتًا المُخَاطَبِين عن حقيقة الروح؛ والخوض في مجهولات العلم التي لا قدرة لهم على استيعابها بعد: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥، وفي ظل شيوع فلسفة الروح المُرَجَّح أن أهرامات مصر؛ سواء المُدَرَّجَة (مصاطب) أو ذات الجوانب المثلثة والتي يُفترض بلوغ الترميز فيها التعبير عن التوحيد، أو حتى صروح بلاد الرافدين الحلزونية وأهرامها المُدَرَّجَة (الزقورات)؛ ليست بالضرورة أضرحة، وإنما الغرض أنها هياكل رمزية للعبادة تمثل أبوابًا أو مصاعد للسماء بهيئة سلالم؛ يحل أعلاها للعابدين مجد الإله، لتصل بالأرواح إلى الله بغاية الطهارة والنقاء.

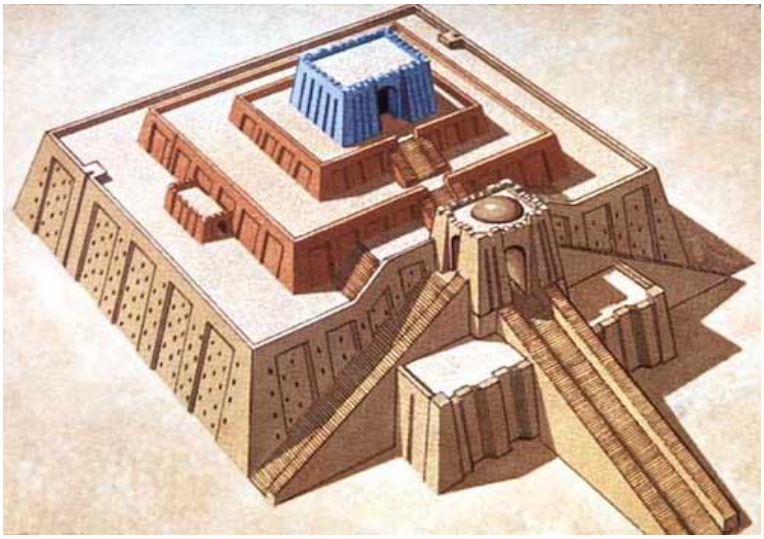

صورة لما كانت عليه زقورة أور في بلاد الرافدين
يعلوها قدس الأقداس الذي لا يبلغه إلا كبار الكهنة

والزارع يحرث ويبذر ويروي؛ وكلها أسباب نتائجها إثمار الزرع، وكذلك الوجود كله أسباب؛ سبب يؤدي لسواه، وترجع جميعًا لسبب أول في قمة هرم الأسباب؛ هو قدرة الإله الأزلي المُطلق القدرات؛ على الإيجاد من عدم بلا سابق مِثَال، بينما كل الخلق أعراض فانية عاجزة، وبِتَهَكُّم فرعون كيدًا ناطقًا بِمُعتَقَد سَابِقِيه؛ يكشف القرآن الكريم غرض الأقدمين من صَب اللبنات وتشييد الصروح كمصاعد روحية نحو السماء: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ غافر: ٣٦و٣٧، ويُصَرِّح النبأ بما بلغت إليه خبرة البناء في عهده التي تجعله متينًا خالدًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ القصص: ٣٨.

(٤) التِرّك والوَثَنِيّات جَهَالآت:

عند التَّحَرِّي يَتَّضِح لك أن الدَّخِيل قد طمس التوحيد؛ أو كاد، أو حَرَفَهُ بالعمد وسوء التأويل وسهو النسخ وغموض الترجمة المُشَوَّشَة والمُشَوِّهَة للأصل؛ إلى نقيض وجهته من تَرِكَة المُوَحِّدِين في معرفة الرب، وتحولت التجربة الذاتية لحالة الوَجْد لطقوس شكلية وتقليد بارد؛ يحفظ مكانة الكهنة ولا يُعلي من شأن الحكمة، ولِحِكمَةٍ كتب هرمس متونه باللغة الملكية؛ لا الشعبية، وأخفاها مُدَّخَرَة الأصل لقادم الأيام، فعادة الشعوب رفع الحكيم إلى مكانة سامية؛ وبتطاول الزمان يتحول الاحترام لتقديس، ويصبح القبر مزارًا ومعبدًا، وتعمل المخيلة لتنسج الأساطير فيختلط الدخيل ببقية مُشَوَّهَة من الأصل، ومجاراة العُرف في تبجيل العظماء مَجَازِيًّا يَصطَنِعهُ المُزَوِّرون والمسيئون التأويل شذوذًا في اعتقاد المُقَلِّدِين المخدوعين، كما حدث مع تعبير "ابن الله"؛ في حين أن الأسفار تنعي بشدة على المُتَأَخِّرِين المُدَّعِين الحكمة مخالفة التوحيد؛ إرث النبوة والحكمة (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ، ١١ ٢٠-٢٥): "إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ..؛ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ..، وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى..، وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ!".

وتَأْلِيه العُظماء وتَأَلُّه الملوك، أو الانتساب للإله بتعبير البُنُوَّة والأُبُوَّة؛ مسلك شائع في تاريخ الأمم، ففي مصر قديمًا زعم الكهنة إمكان حلول الإله في أجساد الملوك؛ فأحاطوهم بالأساطير، وأصبح كونهم آلهة مُتَأَنْسَة أمرًا مألوفًا عند الرَّعِيَّة، فَشُيِّدَت لَهُم المعابد، وقُدِّمَت لتماثيلهم العَطَايَا والقَرَابين؛ وأُلِّفَت الأناشيد والتَرَانيم لتمجيدهم، ولم يكن أوزوريس Osiris وزوجته إيزيس Isis وابنهما حورس Horus وأختها نفتيس Nephthys في الأصل؛ سوى أسرة ملك محبوب اغتاله أَخٍ له مفرط الطموح طامع في السلطة، فحُكِيَت عنهم الأساطير وضَمَّهم خيال الكهنة إلى قائمة الآلهة الخالدين، ويُؤثر عن الملك السومري شولجي (٢٠٢٩-١٩٨٢ ق م) قوله: "أنا ملك الأحياء الأربعة (أركان العالم)؛ وإله كل البلاد، والابن المولود لِنَنْ سُونْ (معبود قومي رمزي)"؛ وخاطبه قائلا: "ليس لي أب؛ أنت أبي"، وكان الأتباع يعتقدون أن فيثاغورث (٥٨٠-٥٠٠ ق.م) ابن الإله، وتفيض الأسفار بتأليه الأشخاص مَجَازِيًّا؛ قال الله لموسى (الخروج ٧ ١): "أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ"، ومضمون التمثيل أن يجعله ذو سلطة تدفع بطش فرعون، وقال لموسى عن هارون (الخروج ٤ ١٦): "هُوَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ عَنْكَ، وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا"؛ أي بمثابة إله وفق العُرف، وأطلق داود لقب الآلهة وأبناء الله على كل شعبه بقوله (مزامير ٨٢ ٦): "أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؛ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ"، وهذا هو الذي استشهد به عيسى عندما قال لأحبار يهود عصره (يوحنا ١١ ٣٤-٣٦): "أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؛ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ.. فَالَّذِي قَدَّسَهُ الأَبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: أَنِّي ابْنُ اللهِ!"، وهكذا كان من اليسير عند القدامى إطلاق كلمة (إله) على كل مُبَجَّل؛ فلا تصح قراءتها إذن إلا وفق عُرف استخدامها حينذاك، والبنوة لله تعالى كان المُعتاد إطلاقها على سبيل المجاز؛ ولكن إساءة تفسيرها من بعد حرفيًّا أدت إلى الرجوع بالبشرية للوثنية من جديد وإفساد مُعتَقَد التوحيد.

والتعبير المجازي يُحمَل على مضمون السياق؛ لا ظاهر اللفظ، ومنه في القرآن الكريم: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ الكهف: ٧٧؛ أي آيل للسقوط، لا أنه ذو إرادة واعية، ويُحمل على زمن الحدث ومعهود بيئة أوَّل المخاطبين وإرثهم الثقافي وتصوراتهم الذهنية؛ لا زمن المُطَالِع للمكتوب ومعهود بيئته، ومنه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات: ٦٤و٦٥، والتشبيه قائم على المعهود الذهني؛ لا على واقع مُشَاهَد لرءوس الشياطين، والمضمون التهويل في التقبيح، ويَرِد لفظ القلب كتعبير رمزي عن الضمير أو تمثيل للملكات العقلية؛ بيانًا للمكانة لا المكان، ويَرِد تعبير البُنُوَّة بيانًا للإيمان والصلاح (يوحنا؛ ١١ ١٢): "أولاد الله؛ أي المؤمنون"، وأيضًا (متى؛ ٥؛١ ٩): "طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ"، وأيضًا (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ؛ ١٨ ١٤): "لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ؛ فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ"، وتدعو الأسفار صَرَاحَةً إلى عبادة الله الخالق تعالى وحده من بين كل الآلهة الزائفة المزعومة، والتَقَرُّب إليه بالطاعات (تثنية؛ ١١ ١٧-٢٠): "الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، الإِلهُ الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ الْمَهِيبُ.. الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي؛ إِيَّاهُ تَعْبُدُ، وَبِهِ تَلْتَصِقُ"!.

(٥) نُبُوءَة تُبَشِّر بِدِين عَالَمِي يُعِيد للتَّوحِيد نَقَاؤُه:

حُجِبَ في الترجمة العربية لمتون هرمس نَصٌّ لاحِق ذو مغزًى لافت؛ في تاريخ مسيرة التوحيد(**)، يُحتسب من البِشَارَات بِمَقْدِم عهد جديد يتخطى حدود مصر ويَسُود كل العالم، يَتَجَدَّد فيه الإيمان ويَتَجَلَّى التوحيد: "ولكن عندما تنزل كل هذه النوازل..؛ فإن الله المُعَلِّم (مصدر الحكمة) الرَّحِيم..، سوف يَقْضِي بأن تَمُر هذه البلايا وتَنْتَهِي..، سوف يدعو الله كل الذين ضَلُّوا عن هُدَاهُ!؛ للعودة إلى الطريق المستقيم!..، وهكذا يُعِيد اللهُ العَالَم إلى سيرته الأولى!..، سوف تَرْتَفِع إليه أصوات المؤمنين به في تلك الأيام بالتَّسْبِيح والدُّعَاء.. يقضي بعظمته وجبروته بأن تعود الطبيعة إلى رونقها السابق.. هكذا قضى الله وهكذا قضت مشيئته الأبدية"، وفاضت كلماته بالدَّعَوَات والابتِهَالات والتَضَرُّعَات: "أدعوك آتوم بِخَشْيَةٍ وتبجيلٍ، مُتَوَسِّلاً ألا أضل طريق تلك المعرفة التي أبدعتها (وهبتها لي)؛ حتى أُرسِل النور لأولئك الذين مازالوا في ظلام..، طلبت منهم القيام حتى يتلقوا بذور الحكمة؛ التي أود أن أغرسها في نفوسهم بتلك التعاليم"، وقَصَّ تجربته الفكرية؛ أو كما سماها الروحية: "لقد كنت الشاهد من خلال العقل الواعي علي ما خَفِيَ في السماء (حيث عالم الأرواح الطاهر؛ والصفاء والخلود)؛ وبالتَّأَمُّل وصلت إلي معرفة الحقيقة، وصببتها في هذه المتون..، سجلتُ في هذه المتون أسرار الإله..؛ بحروف مصرية مُقَدَّسَة في أمشاق (مقاطع؛ خراطيش) على هذه الصخور، وأخفيتها (كنزًا مُدَّخَرًا) لعَالَم المستقبل؛ الذي سوف يُحَاوِل الإنسان فيه البحث عن حكمتنا (التوحيدية) المقدسة".

(٦) التَّوحِيد والحِكْمَة مِيرَاثٌ عَرِيق:

تعاليم هرمس (تُحوت) خلاصة لتأملات حكيمة لمست الحقيقة وأدركت جوهر الموجودات؛ فنطقت بوحدانية الله، سماه الفرس: أنبجهد، والصابئة: دنانوخ، واليهود: أخنوخ؛ وتعني (المُلْهَم)، وفي أسفارهم أنه سلك طريق الإيمان بالله الخالق الواحد والوحيد (الأحد)، وعبادته وحده؛ حَتَّى تَقَبَّلَهُ تعالى بإحسان وأخذه عنده طاهرًا سَامِيًا، مُقَرَّبًا ومُكَرَّمًا (التكوين؛ ١٥ ١٨-٢٥): "سلك أخنوخ مع الله؛ ولم يوجد بعد لأن الله أخذه"، وورد في التراث الإسلامي استنتاج البعض أنه النبي إدريس لعبارة القرآن الكريم في بيان حياته وخاتمته: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم: ٥٦و٥٧، وتَمَثَّلوه أيضا بالنبي يوسف مُستَوطِن مصر ووارث حكمة الأولين، وعلى نفس الدرب التوحيدي لهرمس؛ سارت على طول التاريخ المكتوب أفواج من ورثة الحكمة، فتعددت الهرامسة خُدَّام كلمة الرب؛ وأشهرهم هرمس الأول فنال اللقب "هرمس الهرامسة".

وقد أشار القرآن الكريم إلى كثيرين ساروا منذ القدم على درب التوحيد؛ وليسوا بأنبياء أصحاب كتاب، ومنهم لقمان الحكيم وذو القرنين ومؤمن آل فرعون وزوجة فرعون وملكة سبأ والعبد الصالح معلم موسى والفتية أصحاب الكهف، ولِكُلٍّ من المُوَحِّدِين في التاريخ قصة فريدة ذات تفاصيل؛ ولكن تُوَحِّدهُم جميعًا مأثرة التوحيد؛ مهما تباينت اللغات واختلفت الثقافات، والقول إذن بأن القدامى كلهم عُبَّاد وَثَن؛ تخمين، فالشرك بتعدد الآلهة في مصر لم يُخفِ تَمَامًا مبدأ وحدانية الله، فتصفه مخطوطة هاريس بأنه وحده تعالى "الإله الصانع"؛ أي بخلاف كل الآلهة المُصطَنَعَة المُزَيَّفَة، وتوجد مسلة في برلين كانت بممفيس، وترجع لعصر الأسرة التاسعة عشر، تصفه نقوشها بأنه "الوحيد الحي" وأخرى بأنه "الوحيد الخالد"؛ أي الواحد الأَحَد، وتنزيل الأوصاف البشرية إذن على الله تعالى تَصوِير؛ لِمُلَامَسَة الحقيقة دون عَنَاء، يُعلِن عن عجز اللغة عن بيان صفاته العَلِيَّة بالكلمات.

وهكذا عرفت مصر التوحيد قبل دعوة إخناتون لنبذ التعدد وتوحيد (آتون)؛ متمثلاً نعمة الله في الشمس رمزًا، تُصدر البركات للأمم جميعًا؛ وليس لمصر فحسب، وتنشر أشعتها كما رسمتها النقوش بهيئة أيادي بشرية كهرم يعلوه قرص الشمس؛ مما يؤيد أن الشكل الهرمي رمز هندسي يُجَسِّد جلال الله الخفي عن الأنظار، وفي تمثيل قبل إخناتون للإله بالشمس في بهاء آياته بالعالم؛ تصريح بالتشبيه؛ يعني أنها ليست خالقة: "مضيء في السماء وكائن كالشمس"، وتَمَثَّلوه بالشمس لأنها أيضًا السبب المباشر لتجدد حياة الدواب ونماء الزرع، وتجعل بردية الحكيم آني العبودية حصرًا للخالق الخفي عن الأنظار؛ مُصَرِّحَةً بنفي التقديس عن كل المُجَسَّدَات الرمزية والمَنحُوتَات: "لا تسال عن صورة ربك؛ فهو ليس شمسًا في السماء أو طائرًا أو تمثالاً..، لا تبحث أسرار ملكوت ربك؛ فهي فوق مدارك العقول"، واسم المعبود (آمون) يعني بالهيروغليفية الخفي الذي لا يُرَى؛ لكماله المطلق وتَنَزُّهُه عن صفات خلقه، وظل متوارثًا أنه الإله الأوحد والأكبر، وكل الآلهة الأخرى ليست إلا أوجهًا لقدرته أو تجليات له، فهو إله أعلى واحد ووحيد (أحد)؛ مذكور في متون الأهرام بأنه "القوة الخالقة"، وفي ترجمة د. هنرى بلوجش لنقش: "الإله واحد أحد؛ ليس لديه ثانٍ.. ولا شبيه له.. وهو خالق الكون وكل ما فيه"، وفي مناجاة ببردية بالمتحف البريطاني: "أنت الإله الأكبر؛ سيد السماء والأرض، خالق كل شيء، يا إلهي وربي وخالقي؛ قَوِّ بصري وبصيرتي لأستشعر مجدك، واجعل أذني صاغية (واعية) لأقوالك".

وقد صَنَّفَ المؤرخ المصري القديم مانيتون تاريخ مصر إلى ٣٠ أسرة ملكية؛ ابتداء من عصر مينا موحد القطرين حوالي ٣٢٠٠ ق.م إلى غزو الإسكندر المقدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م، ويؤكد مانيتون أن التوحيد هو لب عقائد المصريين القدماء؛ وأرجعه لنبوات سبقت عصر الأسرات كنبوة إدريس الذي كان يدعو لعبادة الله الواحد الأحد وإلى مكارم الأخلاق، ومن وصاياه: "السعيد من نظر إلى نفسه (مُتَأَمِّلاً)، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة"، "الصبر مع الإيمان يورث الظَفَر"، وشاعت مواعظ الملوك والحكماء التي يُذكر فيها الخالق بصيغة المفرد؛ والتي تدعو إلى حسن الخلق، واعتمادا على ترجمة النقوش والبرديات تَوَصَّل كثير من الأثريين إلى أن مصر هي مهد التوحيد؛ وأنه أساس الديانة منذ عصر ما قبل الأسرات، وأن آثارهم ورموزهم قد اصطبغت بالتوحيد؛ ملوكًا وكهنةً ورعيةً، قال الأثري الفرنسي جاستون ماسبيرو مدير المتحف المصري في نهاية القرن التاسع عشر: "إن المصريين القدماء كانوا أمة مخلصة في العبادة، فكانوا يرون (مجد) الله في كل مكان، فهامت قلوبهم في محبته، وانجذبت أفئدتهم إليه، واشتغلت أفكارهم به، ولازم لسانهم ذكره، وشُحِنَت كتبهم بمحاسن أفعاله"، وفي مؤلفاته كتب والس بدج: "لقد أدرك المصريون بالفعل وجود إله ليس كمثله شيء Who had no like، ولم يكن له كفوًا أحد Who had no equal".

ومتون الأهرام التي اكتشفها جاستون ماسبيرو عام ١٨٨١؛ تحوي أقدم النصوص التوحيدية، وترجع إلى ما قبل التاريخ المُسَجَّل (٦٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م)، وهي تسجيل لمعتقدات حضارات بالغة القدم (كالبداري ونقادة ومرمدة والمعادي وحلوان)؛ وفيها: "إن الخالق لا يُمكن معرفة اسمه؛ لأنه فوق مدارك العقول"؛ أي هو أسمى من أن تراه عين أو أن تعبر عن جلاله لغة، ولذا وردت تسميته بصفات تشبيهية بأحوال البشر مثل: "السيد المُطلق"، "المالك كل شيء"، فالدين إذن في التاريخ المصري القديم لم يبدأ بالشرك والتعدد ثم انتهى إلى التوحيد؛ وإنما استمر التوحيد كذلك منذ البدء، وفي كتاب الموتى قبل عصور الأسرات (٥٠٠٠-٣٢٠٠ ق.م)؛ يكثر الحديث عن التوحيد وذكر الله بالإفراد؛ وعن البعث والحساب، وفيها يتبرأ الإنسان أمام جَابِلُه الواحد قائلا: "لم أرتكب ما يُغضب الإله، ولم أدنس نفسي في حرم الإله، ولم أعترض على إرادة الله"، وفي أسفار التكوين المصرية (الجبتانا)؛ نصوص تجعل القول بأن تاريخ مصر كله وثنية مجرد قراءة خاطئة لِحِكمَة رَمزِيَّة عَمِيقَة أساسها التوحيد.

وفي عصر الأسرة الثالثة (٢٦٥٠-٢٥٧٥ ق.م)؛ من وصايا الحكيم أيمحوتب مهندس الملك زوسر وباني أول هرم صخري (هرم سقارة المدرج) بهيئة مصاطب كسُلَّم يتجه نحو السماء: "لا تسخر من الإنسان الذي به إعاقة، ولا تسخر من الذي فقد بصره، ولا تضحك من الرجل الذي عقله في يد الله (المريض العقلي)"، واحتمل البعض أن إيمحوتب هو النبي يوسف الذي جاء مصر في هدوء وسلام فوَهَبَه اللهُ السلطة؛ لا غازيًا طامعًا في سلطة، لأن الاسم إيمحوتب يعني في الهيروغليفية: "الذي جاء في سلام"، وفي عصر الأسرة الرابعة (٢٥٧٥-٢٤٦٥ ق.م)؛ المأثور عن الحكيم كاجمني وزير الملك سنفرو: "اسلك طريق الاستقامة ...لئلا ينزل عليك غضب الإله..، (هو) قوي؛ وهو يحكم ويُدَبِّر العالم ويرزق البشر"، وفي عصر الأسرة الخامسة (٢٤٦٥-٢٣٢٣ ق.م)؛ المأثور عن الحكيم بتاح حتب في مواعظه لابنه وفق بردية إبريس جامع الوثائق القديمة: "بِيَد الإله مصير كل حي؛ ولا يجادل في هذا إلا الجاهل..، إن تدبير الخلق بيد الله الذي يحب خلقه..، لا تكونن متكبرا ولا تكونن منتفخ الأوداج (أي لا تُصَعِّر خَدَّكَ للناس كبرًا)..، إذا كنت عاقلا فَرَبِّي ابنك حسبما يُرضِي الإله ..، إن الابن المطيع يُحِبُّهُ الله..، واعلم أن بيت الزاني مآله الخراب..، وكل زانٍ لابد أن يكون ممقوتًا من الله لأنه مخالف للشرائع..، ومن خالف الشرائع والقوانين (الإلهية) نال شر الجزاء..، أَسِّس لنفسك بيتًا وأحب زوجتك فإنها حقل طيب لسيدها (وفي ترجمة أخرى: مثمر؛ أي حرث)..، فهي هبة الإله الذي استجاب لدعائك فأنعم بها (عليك)، ولا تكفر بالنعمة التي وهبها الله لك..، فأنت مسئول عنها أمام الإله الأعظم..، والفضل في هذه النصائح يرجع للأجداد؛ لأن نصائحهم جديرة بالتقدير"، وفي عصر الأسرة السادسة (٢٣٢٣-٢١٥٠ ق.م): "أيها السيد المالك كل شيء؛ والذي لا نهاية (لواسع علمه وبالغ قدرته) ولا حد له"، وفي عصر الأسرة الثامنة (٢١٥٠-٢١٣٥ ق.م)؛ في ترجمة بردية الحكيم آني: "اخلص لله في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك؛ حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته..، إذا صليت لله فلا تجهر بصلاتك..، لا تُغضب أمك لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك..، واجعل نصب عينيك كيف حملتك أمك ووضعتك وكيف ربتك..، ولا تمش الخيلاء؛ فإن الله هو الذي يجعل من يشاء عظيمًا..، إذا استشارك أحد.. فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة"، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الإسراء: ١١٠، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ العنكبوت: ٨، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ لقمان: ١٤، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لقمان: ١٨، وقال الحكيم آني: "لا تتردد على محال الخمور احتراسًا من عواقبها الوخيمة؛ لأن لشارب الخمر فلتات يَسْتَفْظِع صدورها من نفسه متى أفاق، وهو دائما مُبتذل مُحتقر عند الناس؛ وحتى بين إخوانه الذين يشاركونه.. شروره.. يقفون قائلين ابعدوا هذا الأحمق..، إياك أن تميل إلى امرأة فتلعب بدينك وشرفك..، فإياك أن تصبو إليها لئلا توقع نفسك في حبائل الهلاك؛ فإن الشهوات طريق الموبقات..، إن ذلك الزنا لجرم عظيم..، لا تذهب إلى بيت إنسان بحرية؛ بل ادخله فقط عندما يُؤْذَن لك"، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ..﴾ المائدة: ٩١، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ طه: ١٣١، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٣٢، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ النور: ٢٧، وفي عصر الأسرة العاشرة (-٢١٣٥ ق.م)؛ وفق ترجمة بردية مواعظ الحكيم خيتي (إختُوَى): "الله وراء الأجيال محيط بأعمالهم؛ لا تدركه أبصار الناس وهو يدرك ما يعملون، فاعبد الله..، والإله يقول إني أنا المنتقم؛ وسأعاقب كُلاًّ بذنبه، وعلى الإنسان أن يعمل ما يريد؛ على ألا ينسى الحساب الأخير"، وهي أشبه بما ورد في القرآن الكريم: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الأنعام: ١٠٣، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الزمر: ١٥، ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فصلت: ٤٠، أليس من نفس النبع إذن استقَت حكمة الأولين، والتي كانت غيبًا دفينًا يوم جاء القرآن الكريم كاشفًا لها ومُؤَيِّدًا مُصَدِّقًا؛ قبل أن تبوح بها النقوش والبرديات!.

وفي عصر الأسرات ١١ و١٢ و١٣ (٢١٣٥-١٦٥٠ ق.م)؛ وفق ترجمة بردية تشستربيتي جامع المخطوطات القديمة: "لا تعترض على الرب؛ فإنه يغضب على من يعترض عليه، ولا ترفع صوتك في المحراب؛ فإن الله يحب السكون"، وهي أشبه بنصائح لقمان الحكيم: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ لقمان: ١٧، ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لقمان: ١٩، وفي عصر الأسرة الثامنة عشر (١٥٥٠-١٢٩١ ق.م)؛ أوصى الملك تحوتمس الثالث (١٤٧٩-١٤٢٦ ق.م) وزيره رخمي رع قائلا: "لا يرضى الرب بالتحيز، كن يقظا؛ فمنصب الوزير عماد الأرض كلها، فليس للوزير أن يستعبد الناس..، تصرف بالعدل؛ فالمحاباة يمقتها الرب..، كن عادلاً مع من تعرفه ومن لا تعرفه"، وعن الوزير الحكيم رخمي رع: "اسمعوا أنتم يا من في الوجود؛ إن الله يعلم ما في الأنفس"، وفي ترنيمة بالمتحف البريطاني عصر أَمِنْحُتُب (إمنوفيس) الثالث (١٣٩١-١٣٦٠ ق.م): "أيها الخالق الذي لم يخلقك أحد، الواحد المنقطع القرين (النظير) في صفاتك، والراعي ذو القوة والبأس، والصانع الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر"، وفي أنشودة: "إنك صانع مُصَوِّر..، دون أن تُصَوَّر، مُنقَطِع القرين في صفاته (لم يكن له كُفوًا أحد)"، وفي نهاية الأسرة الثامنة عشر ظهر ابنه أَمِنْحُتُب الرابع المُلَقَّب بإخناتون (١٣٧٠-١٣٠٤ ق. م) كأشهر المُوَحِّدِين، وفي ترجمة لترنيمة آتون العظمى لإخناتون؛ المكتشفة بمقبرة بتل العمارنة: "إنك الإله الواحد لا مثيل له، خلقت الأرض برغبتك منفردًا؛ فيها الناس والأنعام وكل الحيوانات، وكل ما على الأرض وما يسير على أرجله وكل ما يطير بجناحيه في السماء"، ومن ابتهالاته: "أيها الواحد الأحد؛ الذي لا إله غيره، خلقت الأرض على هواك؛ أيها الواحد الأحد، لك الخلق من ناس وحيوان ودابة".

وفي عصر الأسرة العشرين (١١٨٧-١٠٧٥ ق.م)؛ عاش الحكيم أمين موبي Amen Mope، ومن أقواله: (ما فائدة الملابس الجميلة؛ إذا كان الإنسان باغيًا أمام الله..، الكمال لله وحده والعجز من صفة الإنسان..، لا تغالط زميلك أو شريكك في الحساب؛ فَيُبغِضُكَ الله وتشتهر بالغدر والخيانة..، لا تقل أنا خالٍ من الذنوب؛ فإن الله وحده هو الذي يعرف المذنب والبريء..، إذا أذل الغني فقيرًا؛ أذله الله في الدنيا، وأذاقه عذاب النار في الآخرة..، إنه لسعيد من يصل إلى الدار الآخرة؛ وهو ناج في يد الله)، ووفق ما توصل إليه الباحث الألماني إرمان وأعلنه سنة ١٩٢٤؛ سفر الأمثال في أسفار اليهود، والذي نسبه الأحبار الكهنة كتبة الأسفار إلى النبي سليمان؛ ما هو إلا ترجمة حرفية لأمثال الحكيم المصري أمين موبي المكتشفة برديته حديثًا، قال برستد: "وجميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يُعتَد بآرائهم وأبحاثهم فيه يجزمون الآن بأن محتويات سفر الأمثال قد أخذت بالنص من حِكَم الحكيم المصري القديم أمين موبي؛ أي أن النسخة العبرانية هي ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفي العتيق".

وفي عصر الأسرة الواحد والعشرين (١٠٧٥-٦٦٤ ق.م) عاش لقمان الحكيم المصري ابن النوبة، وقد شهد له القرآن الكريم كاشفًا العلم بما كان عليه حكماء مصر قديمًا من توحيد وتقوى وورع وتَنَسُّك وزهد، وهو إنباء بغيب في وقت قد زالت فيه حضارتهم واندثرت معالم لغتهم؛ والتي لم تُفَكَ شفرة طلاسمها وتُعرف دلالة رموزها إلا بعد اكتشاف حجر رشيد، وكان أول ما وعظ به ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان :١٣، ومن حِكَمِه المأثورة: "يا بني اتخذ تقوى الله تجارةً؛ يأتيك الربح من غير بضاعة..، يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك؛ فإن الله ليحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء..، يا بني لا تؤخر التوبة فأن الموت يأتي بغتة"، وفي عصر الأسرة الثلاثين (٣٨٠-٣٣٢ ق.م)؛ عاش الحكيم بتوزيريس كبير كهنة الأشمونين بصعيد مصر، وسجل كتاباته حوالي ٣٥٠ ق.م، ونُقِشَت على مقبرته أقوالاً في التوحيد: (ألا ما أسعد من ملأت خشية الله قلبه)، والمأثور بعد عصر الأسرات عن الحكيم أفلوطين المولود في أسيوط سنة ٥٠٢ م قوله: (الله هو الواحد The One الذي صدرت عنه الموجودات..؛ هو علة كل ما هو موجود).

ويفيض إرث الأمم كذلك بمَلاَمِح التوحيد والحكمة؛ كمأثور الصابئة المندائيين Sabians، واسم كتابهم المقدس الكنز العظيم (كنزا ربا Ginza Rba)؛ ومطلع تعاليمهم: "بأسماء الحي العظيم طَهَّرت يدي بالحق والصلاح؛ وشفتي بالإيمان بالحي العظيم الأوحد، لينطقا بكلام النور، وليكن ضميري نقيا ومؤمنا، الحي الأمجد فوق كل جلال"، وقالوا إنها: "ديانة أتباع آدم أبو البشر، وشيث بن آدم (شيتل)، وأنش (أنوش بن شيث)، وإدريس (دنانوخت)، ونوح (نو)، وسام بن نوح (شوم)، وإبراهيم (بهرام)، ويهيا يهانا (يحيى بن زكريا)؛ أنبياء الله الحي الأوحد العظيم مباركة أسماءهم ومُبَجَّل اسم خالقهم".

ومثلهم الزرادشتيين المجوس Zoroastrians (تعريب للكلمة الفارسية مكوس التي تعني مُفَسري الرُّؤَيا)؛ المنسوب إرثهم الإيماني للحكيم زرادشت، وفحواه الإيمان بإله أوحد خالق غير مخلوق وخالد (أهورا مزدا)؛ مصدر نور الهدى والتقوى والخير للناس جميعًا، والمُحَاسب يوم القيامة لينجِّي الأنفس الطيبة حين بعث الأجساد والنهوض من الموت واجتياز البرزخ؛ ويهبهم حياة جديدة أبدية مليئة بالبهجة والسرور وخالية من الآلام، واعتقادهم راسخ بالجنة والنار والصراط وميزان الأعمال، والنار عندهم مقدسة لكونها تُمثِّل رمزيًّا فيض نور حكمة الإله الأوحد التي تسطع باليقين؛ يقول الحكيم زرادشت في كتابهم المقدس (الأفستا): "إني لأدرك أَنَّكَ أنت وحدك الإله؛ وأنك الأوحد الأحد، وإني من صحة إدراكي هذا أوقن تمام اليقين.. أنك أنت الإله الأوحد".

هذا هو أصل الديانة؛ وإن عَكَّرته أوهام الكُهَّان فتغيرت مَعَالِمُه مع الزَّمَان، وفي القرآن الكريم رَجَاء بتفويض مصير من وَرِثُوا بقية من حِكْمَة الأَوَّلِين لعلام الغيوب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة: ٦٩، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٦٢، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الحج: ١٧، وتفيض نصوص التوحيد كذلك في ترجمات موروث الديانات؛ ببقية من حكمة الأولين، كمأثورات المُعَلِّم كونفوشيوس، والمُعَلِّم بُوذا (الدَّامَابَادَا)، وكتاب الهندوس (البْهاغَافَاد غيتا)؛ ومعناه أنشودة لله الخالق، وهو عندهم روح الظواهر المَادِّيَّة ويُدعَى بالسنسكريتية (براهما).

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لمُوَحِّدِين؛ أنبياء وحكماء، كإسماعيل واليسع ويونس ولوط وذا الكفل: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنبياء: ٨٥، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام: ٨٥و٨٦، ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ص: ٤٨، وضَرَبَ مثلاً بإِلْيَاس مُحارب عبادة بَعل Baal؛ الوثن الفينيقي في بلاد كنعان وما كان يُجاورهَا: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصافات: ١٢٣-١٣٢، فلم يتطور الدين إذن باجتهاد بشر حتى بلغ التوحيد الخالص بالإسلام؛ وإنما هو ذات الوحي وفيض النور والحكمة منذ فجر التاريخ.

فالتَّوحِيد إذن لُب حكمة الأولين؛ وإن خفت بَهَاؤُه بالابتعاد عن الأصل وذبلت نضارته بالتَحرِيفَ فتَطَلَّبَ الإصلاح والتَّجدِيد، وفي القرآن الكريم تصريح بفطرية الإيمان وعراقة التوحيد: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ يونس: ١٩، قال القنوجي في تفسيره فتح البيان: "المعنى أن الناس جميعاً ما كانوا (إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً) مُوَحِّدَة لله سبحانه.. لأن التوحيد.. مِلَّة قديمة اجتمع عليها الناس.. فِطرةً..، وأن الشرك.. جَهَالاَت ابتدعها الغُوَاة، (فَاخْتَلَفُوا) أي فصار البعض كافرًا..، وبقي البعض على التَّوحِيد".

خاتمة:

على الفطين إذن أن يمضي على درب الأنبياء والحكماء مُتَتَبِّعًا خُطَاهم؛ وإن في الكون لعبرًا لا تفوت الواعين، والحكمة تقتضي أن يعمل الإنسان فكره ويَتَبَصَّر المغزى؛ ليوقن بوحدانية الله تعالى وقدرته، فاستَنطِق الوجود إذن لتجد أن الكل يشهد للمبدع القدير بالحكمة والعظمة؛ مُتَعَبِّدًا على الدوام، وتَحَرَّر من حجاب الإلف وقيد الغفلة ترى كل شيء مظهرًا لجلال الله، ويبدو لك الوجود بعين البصيرة حشودًا تُسبح؛ كُلاًّ يُمَيِّزه إيقاع، هكذا يرى البصير في كل شيء آية تشهد لله بالوحدانية والاقتدار، فيستحيل قطعًا أن تقيم الصُدفة نظاما أو تصنع الفوضى ثبات؛ ولو تباينت الإرادة المُبدِعَة وتَعَدَّدَت الذات لانعدم الثبات، قال سيد قطب في تفسيره (الظلال): "تقدير في الزمان وتقدير في المكان وتقدير في المقدار وتقدير في الصورة وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال"، فأنصت إذن لِمُنَاجَاة تَشدُو بها وتُرَدِّدُهَا الخليقة؛ تُسَطِّرُها روائع يفيض بها القرآن الكريم لتستنهض النَّابِه فتهز الكيان وتأخذ بالوجدان، ففي ثلاثة مواضع للتأكيد ورد أن الوجود كله يَصدَح بالتسبيح: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحديد: ١ والحشر: ١ والصف: ١، أفلم تسمع يومًا لطائرٍ بقرب عشِّه يُغَرِّد لأنثاه مبتهجًا؛ من عَلَّمَهُمَا إذن فن الإنجاب ومَيَّزَ كلٍّ بمؤهلات!، قال طنطاوي جوهري في تفسيره (الجواهر): "هذا النظام الجميل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته؛ فإن هذا العالم المشاهد لا يمكن أن يصدر إلا عن إرادة، لأن المادة عمياء جاهلة؛ والجاهل لا يعطي علمًا".

فانزع عنك القيود إذن وتَحَرَّر؛ وتَأَمَّل بشغف روائع أذهلت فرسان البلاغة وأساطين البيان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ النور: ٤١؛ هكذا بلغ المُوَحِّدُون اليَقِين، والمُتَأَسِّي بأَمْجَاد المُوَحِّدِين؛ لا يَشغَلُهُ نَازِع حوله أو وازع داخله عن الاعتِبَار قبل الرَّحِيل، والإِنْصَات لتسبيح الوجود مُنَادِيًا بالتَّوحِيد؛ المغروس القَبُول في أعماق الوِجدَان، ليَرتَجِف انبهارًا وخشوعًا أمام شواهد جلال المُبدع القدير، وينعم بالأَمْن والسلام والسكينة والاطمئنان وراحة البال؛ بلا آلام، والابتِهَاج بِنَشوَة العِبَادَة ويَنع شَجَرة اليَقِين، والوِلاَدَة مِن جَدِيد؛ مُفعَمًا بِنَضَارَة الحَيَاة.

د. محمد دودح؛ الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي
في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

المراجع:

(١) متون هرمس حكمة الفراعنة المفقودة ثيموثي فريك وبيتر غاندي ترجمة عمر الفاروق عمر ٢٠٠٢، (٢) هرميس الحكيم الترجمة الدقيقة الكاملة لأقدم تعاليم دينية منسوبة لمثلث العظمة، (٣) هرمس المثلث العظمة لويس مينار، (٤) هرمس المثلث العظمة أو النبي إدريس لويس مينار ترجمة عبد الهادي عباس، (٥) الجبتانا أسفار التكوين المصرية، (٦) أسفار الكنيسة، ترجمة سميث وفانديك، نشر كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي بالإسكندرية، (٧) التاريخ المصور لمصر القديمة كارلو ريو ردا ترجمة ابتسام محمد عبد المجيد ٢٠٠٩، (٨) المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفري بارندر ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام مراجعة د. عبد الفتاح مكاوي ١٩٩٣، (٩) المبادئ الخمسة للمعلم كونفوشيوس د. محمد علي جريشة، (١٠) البْهاغَافَد غيتا (الله أو الرب) أنشودة المولى تعريب د. سليم حداد، (١١) كتاب الموتى الفرعوني، الترجمة عن الهيروغليفية السير والس بدج، الترجمة العربية د. فيليب عطية، (١٢) الجبتانا أسفار التكوين المصرية، علي علي الألفي، (١٣) الدامابادا كتاب بوذا، (١٤) قدماء المصريين أول الموحدين د. نديم السيار، (١٥) المكتبة الشاملة، (١٦) الانترنت.

(*)http://www.masonicdictionary.com/triangle.html .

(**) http://www.toutankharton.com/montada/viewtopic.php?id=188

http://www.michaelmandeville.com/library/egypt/thothpro.html .